بيت الحكمة في عصر العباسيين

د . خضر احمد عطاء الله

كانت السمه البارزة فى تاريخ الدولة العباسية هى اهتمام خلفائها بتعميم المعرفة وتعضيد من يعمل بها وترجمة ما كتب فيها الى اللغة العربية، وكان الخليفة المنصور هو الراعى الذى فعل اكثر ما يمكن لاجتذاب الاطباء والنساطرة الى مدينه بغداد،فقد ترجمت له كتب فى الطب والنجوم والهندسة والآداب كما ألفت له معظم كتب الحديث والتاريخ.

فقد ترجم جرجيس بن بختيشوع مؤلفات كثيرة فى الطب من اليونانية الى العربية. فخصص المنصور خزانات لهذه الترجمات وغيرها من المخطوطات القيمة[١] وحتى آخر عهده كانت مخطوطات التراث ودفاتر العلم تحفظ فى قصر الخلافة فى بغداد، حتى ضاق عنها على سعته .

ولما جآء الخليفه هارون الرشيد وكان من اعظم خلفاء بنى العباس واكثرهم ذكرا فى التاريخ العباسى، من كرم وجود وصلت اليه الدولة العباسيه من نهضة حضارية بلغت الاوج ، فقد اصبحت بغداد فى عهده كعبة العلم والادب وموكز التجارة والصناعة وظهر فى ايامه شعراء عظام من امثال ابى العتاهية والعباس بن الاحنف ، ومروان بن ابى حفصة، مؤرخون من امثال الاصمعى والواقدى [٢] وغيرهم كثير ...

فالحجة الرشيد الى اخراج الكتب والمخطوطات التى كانت تحفظ فى جدران قصر الخلافة بعد أن تضخم رصيدها من التراث المدون ، والمخطوطات المؤلفة المترجمة ان لتكون مكتبة عامة مفتوحة الابواب

للدارسين وطلاب العلم فأسس دارا رحبة فخمة نقل اليها كل الذخائر وسماها "بيت الحكمة " تقديرا لجلال رسالتها [٣]وكانت هذه المؤسسة مؤسسة ثقافية كبرى تقوم بعمل جليل . فكانت مهمتها اول الامر الملازمة ثم تطورت زمن المأمون حتى اصبحت مؤسسة علمية من الطراز الممتاز همها ترقية البحث والدرس للدراسات العليا.

ويمكننا أن نقول أن هذه المؤسسة المسماة باسم "بيت الحكمة " قد اصبحت زمن المامون اكاديمية بالمعنى العلمى الدقيق للكلمة فيها اماكن للدرس، واماكن لخزن الكتب، واماكن لنقلها، واماكن للتأليف الى جانب المرصد الفلكى الذى مارسته وهذا تطور طبيعى ومنطقى [٤]

ويقول ابن القفطى: "ان بيت الحكمةكان رمزا للمناحى العلمية المختلفة فهارون الرشيد هو الذى ابتدع فكرة هذا المعهد وتبناه ابنه الخليفة المأمون ، والحكمة فى رأى العلماء المسلمين هى العلوم الالهية والعددية وصناعتى الطب والتنجيم"[٥]

وفعلا كانت اكثر اعمال بيت الحكمة ضمن نطاق هذه العلوم ، ولتنوع العمل فى هذا المعهد نصب الخلفاء على ادارتها رئيسا له من الادراك العلمى ما يقدربه أن يجعل منها محرابا مقدسا للعلم والعلماء[٦]

وقد نالت بيت الحكمة فى عهد الرشيد عناية فائقة با لكتب المترجمة التى تحمل كنوز الثقافة الاجنبية فعين لها الموظفين وآتاها حاجتها من الكتب . فنمت واشتدت واخذت تأتى أكلها طيبا يانعا[٧]

ولاريب فى ان هذه المؤسسة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة ويلغ من اهتمام هارون الرشيد بالعلم والعلماء أنه كان يقبل الجزية كتبا[٨]

وهذا يدلنا على شغف الخليفة باقتناء الكتب وجلبها حتى اصبحت بيت الحكمة أول مكتبة عامة ذات شان فى العالم الاسلامى ، بل انها أول جامعة اسلامية

اجتمع فيها العلماء والباحثون ولجأ اليها الطلاب. وكانت بذلك اول مركز علمى يحقق للطلاب زادا علميا وفيرا ويخرج لهم من جهد القائمين عليه ثقافة مختلفة الاتجاه تشكل علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها[٩]

"وقد اكد بعض المؤرخين " ان بيت الحكمة كان جامعة كبيرة وان المكتبة كانت جزءا منه[١٠]

اما الاسم الذى اطلق على هذه الاكاديمية له دلاليته الواضحة فقد سميت "بيت الحكمة" او" خزانة الحكمة" ولم يسم باسم خزانة الكتب وذلك للاشارة الى الكتب التى كانت تجمع فيها والتى كانت تعرب هناك. فالمعنى اللغوى لكلمة حكمة كما ورد فى المعجم الوسيط[١١] هى : من الحكم : من اسماء الله تعالى . والحاكم . وفى التنزيل العزيز : "افغير الله ابتغى حكما"[١٢] ومن يختار للفصل بين المتنازعين . وفى التنزيل العزيز: "وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها"[١٣] ويقال رجل حكم : من وهم حكمه . الحكمة : معرفة افضل الاشياء بافضل العلوم . والعلم والتفقه . وفى التنزيل العزيز : "ولقدآتينا لقمان الحكمة:[١٤]. والعدل يقال : حكمة التشريع . وما الحكمة فى ذلك ؟ (وعلم الحكمة) الكيمياء والطب .

العلم والتفقه . والحكمة يقال الصمت حكم والقضاء أما الحكمة فى ذلك الوقت فقد كانت مرادفة للفلسفة، وخاصة الفلسفة اليونانية ويقصد بالفلسفة المعنى العام الفضفاض للكلمة .

فقد كانت كلمة فلسفة تشمل الطب والفلك وعلم الهيئة والطبيعة والرياضيات والمنطق. وهذا يدل على الاتجاه العقلى لمؤسس هذه الاكاديمية وعلى التيار الثقافى الذى كان غالبا آنذاك.

أما كلمة الخزانة او بيت فهى تدل على المكان الذى يوضع فيه الشئى اويخزن .

ومات هارون الرشيد وبيت الحكمة

زينة بغداد عاصمة العرب والاسلام، وعلى الرغم من الثورات والفتن التى ملأت عهد المأمون . فان عصره يعتبر أزهى عصور الدولة العباسية من الناحية العلمية، فقد اهتم بالمسائل الفلسفية والعلمية وشجع على النهضة الفكرية ونشر العلوم فزود بيت الحكمة بمختلف انواع الكتب من الهند ، وبلاد الروم والفرس . حتى اصبحت اشبه بجامعة علمية تضم دارالكتب يجمع فيها شيوخ القصر للترجمة والتأليف والتحصيل كما خصص فيها مواضع للنساخين[١٥]

وجمع المأمون فى مكتبته اعظم المفكرين والعلماء والاطباء والنقلة، وأغدق عليهم العطاء فاصبحت خزانة كتب بيت الحكمة من اثرى واعظم خزائن الكتب فى ذلك الوقت . كان خازنها سهل بن هارون مما يؤكد ان بيت الحكمة كانت تضم مكتبة جليلة صنفت كتبها واختير لها المترجمون المشهورون

ومنهم يوحنا بن ماسويه وابن البطريق[١٦]

ويوحنا بن ماسويه السريانى المتعرب الذى قام بترجمة كتب الطب جئى بها من انقرة وعمورية وبلاد الروم يعاونه عدد من المترجمين والكتبة والحذاق كما جئى بكتب الحكمة والفلك من فارس وعهد بها الى ابن ابى سهل الفضل بن نوبخت الذى نقلها من الفارسية الى العربية فواصل الحركة التى بدأها ابن المقفع بترجمة تراث الفرس واضيف الى خزائن بيت الحكمة ما صنف علماء العربيه والاسلامية فى علومهم الاسلامية والعربية الاصيلة الى جانب مادونوه من تراثهم المجموع[١٧]

اما حنين بن اسحاق فقد كان من ابرز الاطباء والمترجمين فى عهد المأمون ، وكان اعلم زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية الى حد لم يصل اليه احد من النقلة الذين كانوا فى زمانه، مع براعته ايضا فى اللغة العربية، ومداومة الاشتغال بها حتى صار من جملة المتميزين بها[١٨]

ويضيف ابن القفطى قوله : "وكان حنين فصيحا لنا بارعا شاعرا وكان له شيخا

فى العربية الخليل بن احمد الفراهيدى"[١٩]

اما محمد بن موسى الخوارزمى الذى عاش فى بغداد فيما بين (١٦٤-٢٣٥هـ/ ٧٨٠م- ٨٥٠م وتوفى هناك وقد بوز فى خلافة المأمون وطور الخوارزمى علم الجبر كعلم مستقل عن الحساب . ومن هنا اصبح هذا العلم ينسب اليه فى جميع انحاء المعمورة، والخوارزمى اصله من خوارزم وكان منقطعا الى خزانة الحكمة فى عهد المأمون وهو من اصحاب علم الهيئة. وله من الكتب كتاب " الزيج " نسختين وكتاب الوخامة وكتاب العمل بالاسطر لاب وكتاب التاريخ[٢٠]

اذ ابتكر الخوارزمى[٢١] فى بيت الحكمة الفكر الرياضى وذلك بايجاد نظام جديد لتحليل كل معادلات الدرجه الاولى والثانية ذوات المجهول الواحد بطريق جبرية وهندسية. والعلم يدين له بما تعرفه الآن من علمى، الجبر والحساب . وهكذا سطع نور بيت الحكمة فى ايام المأمون وايام هذا الخليفة كانت عهدا ذهبيا فى حياة الدولة العباسية .

اما فلما ذا أسست بيت الحكمة؟ حينما جاء الخليفة هارون الرشيد (١٧١ه-١٩٣هـ/٧٨٦م-٨٠٨م) وكان كثير الاهتمام بعلوم الحكمة وترجمة كتبها من اللغات المختلفة . فاتسعت دائرة الترجمة وزاد عدد الموظفين المشتغلين بها وتألق فى عصره انجم عدد من العلماء من امثال الاصمعى النحوى المشهور وجبريل بن بختيشوع[٢٢] .

فتجمعت لدى الرشيد عدد كبير من الكتب فرأى انشاء مكانا لتحفظ فيه هذه الكتب التى جمعها . فأنشاء بيت الحكمة مما ساعد على انتشار التعليم[٢٣]

هكذا فان تأسيس بيت الحكمة يرجع الى الخليفة هارون الرشيد فقد ذكر ابن النديم[٢٤] فى كلامه عن ابى سهل الفضل بن نوبخت انه كان فى خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، وذكر فى ترجمة علان الشعوبى انه

كان منقطعا الى البرامكة وينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة[٢٥] وحتى يتم مشروع ترجمة الكتب الاجنبية وحفظها فى بيت الحكمة ولى عدة علماء امرها . فعهد الى الفضل بن نوبخت[٢٦] امر العناية بالكتب الفارسية والى يوحنا بن ماسوية وهو شيخ النقلة فى عصره . ويقول ابن ابى اصيبعة : " كان يوحنا بن ماسويه سريانيا قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجده بانقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه امينا على الترجمة "[٢٧] ومنح العلماء الكثير من الحرية والتكريم، وقد منح مرة لاحدالعلماء مائة الف درهم[٢٨]

ومعظم الكتب التى وصلت من الهنود فى الطب والفلك والرياضيات وقد تم الانتهاء من نقلها فى عصر الرشيد ، وكان بعض علماء الهند وقد وفد وا الى بغداد منذ عهد المنصور سواء من تلقاء انفسهم او يدعوهم الخلفاء للحضور[٢٩] وقد وجهت العناية فى بداية ايام الرشيد الى الكتب الفارسية والهندية[٣٠]

فكما ذكرنا سابقا ان الرشيد هو الذى اسس بيت الحكمة وجعلها مقرا لنقل الكتب اليونانية والفارسية الى العربية ، بل لعله هو الذى بدأ تلك الحملات العسكرية ذات الهدف العسكرى وفى نفس الوقت ذات الهدف العلمى بقصد جلب نفائس المحطوطات اليونانية الى بغداد لتعريبها .

ذلك ان الرشيد دأب على غزو الروم فى مقر دارهم فى غزوات سماها الصوائف وكان يكسر شوكة الروم ويمنعهم من التفكير فى الهجوم على ديار المسلمين وفى نفس الوقت يوجه غزواته الى المدن اليونانية المشهورة لانها معاقل الثقافة كعمورية وانقرة . وكانت خزائن هذه المدن مليئة با لمخطوطات النادرة والكتب النفيسة التى كان سكانها قد جهلوا قيمتها[٣١]

ولما جاء الخليفة المأمون بعد ذلك وكانت له فى العلم رغبة لما كان ينتحله فانبعث بهذه العلوم حرصا . واوفد الرسل

الى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين وانتساخها با لخط العربى.وبعث الممترجمين لذك فاوعى واستوعب وعكف عليها النظار من اهل الاسلام وخد موا فى فنونها وانتهت الى الغاية انظارهم فيها وخالفوا كثيرا من آراء المعلم الاول ارسطوا واختصوه بالرد والقبول ودونوا فى ذلك الدواوين واربوا على تقدمهم فى هذه العلوم[٣٢]

وبهذا نرى ان نشاط بيت الحكمة وصل الى ذروته فى عهد المامون الذى كان واسع الثقافة حر التفكير .

ولعل احسن وصف للمأمون والحركة التى نشأت فى عهده وغذاها بماله ونفوذه وجهده وعلمه وجهاده هو قول القاضى صاعد الاندلسى[٣٣] فى كتابه طبقات الامم حيث يقول: ثم لما افضت الخلافة الى الخليفة السابع فهم يقصد بنى العباس عبد الله بن المأمون بن الرشيد بن محمد المهدى بن ابى جعفر المنصور فتم ما بدأ به جده المنصور فا قبل على العلم فى مواضعه واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة ووفق نفسه الفاضلة ...."

ومن اهم الاهداف التى سعى مؤسسو بيت الحكمة وعلى رأسهم الرشيد والمأمون لتحقيقها لاقامة هذا الصرح العظيم هو تنشيط حركة التأليف والترجمة والتصنيف . فقد بلغت الحضارة العربية الاسلامية اوجها فازدهرت ازدهارا عظيما فى العصر العباسى حيث وصلت الى المستوى الحضارى الذى تفخر به الامم والشعوب المتحضرة.حيث كان يقاس المستوى الحضارى با لآثار المكتوبة الفكرية يعنى الكتب والتاليف[٣٤] ولو رجعنا الى مادة الفكر والتأليف لرأينا العرب بلغوا من الدرجات ما لم يبلغ الغرب قبلها الا فى العصر الاخـ . ومن ثم يصبح القول بان التصنيف ـ فى العصر العباسى معني هذا ان تصنيف الكتب على اسلوب دقيق بدأ فى هذا العصر الا ان الكتابة والتأليف والجمع حدث قبل العصر العباسى .

وايا كان الامور فالحركة العلمية فى العصر العباسى كانت قوية لدرجة تذهل الانسان ، فهذه البصرة تؤلف الكتب وتستخرج الاراء وتضع النحو ، وهذه الكوفة تكتب فى التاريخ والادب وتؤلف فى النحو وهذه بغداد تضم خضما هائلا من العلماء يتكاثرون فى المساجد ويكتبون العلم حتى اذا ما وصلنا الي عصر المأمون رأينا معظم المتعلمين ينكبون على إخراج الكتب[٣٥] فنشطت حركة التأليف والترجمة حيث قاموا با لاتصال بالعلماء واستدعوهم الى بغداد ، وكانوا ينفقون عليهم الاموال الكثيرة لترجمة الكتب الى اللغة العربية ودامت هذه الاعمال اعمال الترجمة المحضة المثمرة بين عام (٧٥٠م -٩٠٠م) وفى هذه الفترة عكف المترجمون على نقل امهات الكتب من السريانيةواليونانية والفهلوية والسنسكريتة وكان على رأس اولئك المترجمين المقيمين فى بيت الحكمة طبيب نسطورى هو حنين بن اسحاق (٨٠٩-٨٧٢م) وقد ترجم وحده - كما يقول هو نفسه - الى السريانية مئة رسالة من رسائل اخرى رد بفضل هذا بخت مؤلفات جالينوس من الفناء[٣٦] وكاد المأمون ان يفلس بيت المال حين كافأ حنين على اعماله .

وفى هذا الصدد يذكر البرفسور امان الله خان رئيس قسم الدراسات الاسلاميه فى معهد الدراسات الاسلامية بجامعة بنجاب سابقا فى بحثه " المأمون وبيت الحكمة " " ان المترجمين والموظفين فى بيت الحكمة كانرا يتقاضون رواتب شهرية مايعادل ٢٥٠٠ روبية باكستان با لاضافة الى ان المأمون كان يدفع مقابل كل كتاب يترجم وزنه ذهبا "[٣٧].

من هناك يتضح لنا كيف حافظت بيت الحكمة على التراث العالمى وانقذته من الفناء وخير مثال على ذلك مؤلفات جالينوس وهذا من احدى اهداف بيت الحكمة .

وقد أنشأ المأمون فى بغداد مدرسة لتخريج المترجمين وهى مكملة لدار الحكمة ،

وعنى بها المأمون وجعل سهل بن هارون امينا عليها[٣٨] ...وكانت رسالة بيت الحكمة الاساسية ترجمة الكتب اليونانية إلى العربية على يد يوحنا بن ماسوية وحنين بن اسحاق وسلم خازن بيت الحكمة فى زمن المامون ... وممن حاضر فيه والقى دروسا الامام الخوارزمى[٣٩] .

كما زخرت خزائن بيت الحكمة بالكتب المترجمة ، واقبل الناس على قراءة هذه الكتب والتعمن فيها فادى ذلك الى حركة فكرية جديدة فى التأليف والنشر ، هذه الحركة انتجت ثقافة واسعة مبنية على القديم والحديث .

كما كان من اهداف بيت الحكمة نشر التعليم والمعرفة بين المسلمين فانشاء هذا المعهد العالى- ان جاز لنا التعبير- كان لهذا التقدم العلمى فى العصر العباسى[٤٠]

ومما لاشك فيه انه ساعد على نشر التعليم بين جمهور المسلمين ، ولم يكن انشاء دور الكتب مقصورا على العراق بل تابعت فى مصر والاندلس دور كتب خاصة تعهدها الخلفاء والامراء والوزراء فكانت عاملا كبيرا فى تسهيل دراسةالعلم والتعليم. كذلك لم يكن التعليم مقصورا على الجوامع والمساجد فكثيرا ماكانوا ينسقون حلقات التدريس با لمستشفيات والرباط وغيرها من الاماكن[٤١]

وبانشاء بيت الحكمة تم ادخال نظام جديد على العالم الاسلامى للمكتبات فقد كان لمحمد بن يحيى بن عبد الله العباسى ابوبكر المعروف بالصولى وهو احد العلماء وكان للصولى بيتا عظيما مملواء با لكتب وهى مصفوفة وجلودها مختلفة الا لوان . كل صف من الكتب لون- فصف احمر واخر اخضر- واخر اصفر وغير ذلك،

وهذا الترتيب البديع وهو احدث نظام يتبع فى ترتيب مكتبات اوربا . ومن اهداف بيت الحكمة حرصها الشديد على المحافظة على الكتب المصنفات التى تترجم اوتصنف فقد ارتبط بظهور الحركة العلمية

ونشاطها فى بغداد المحافظة على الكتب والمصنفات .

ومن هنا جاء دورها الهام باقامة جهاز ادارى يتولى الاشراف والتنسيق داخل بيت الحكمة . وكان العلماء فى الدولة الاسلامية يودعون نسخا من مؤلفاتهم فى بيت الحكمة[٤٢] على ان يقوم الجهاز الادارى بالمحافظة على تلك المؤلفات من الضياع . وفى عهد العباسيين نراهم مستودع الذخائر العلمية فى العالم ، كما نرى وكلاء الخلفاء ينقبون فى كل بلد من بلاد العالم عن كنوز الثروة القديمة ثم يجلبون الى العاصمة بغداد ويعرضونها على الناس فينظرون بعين الاعجاب والتقدير[٤٣]

كماكانت تقام ببيت الحكمة المراصد وتستخدم فيها اساليب التنجيم واستطاع خليفة المأمون ان يجعل من هذا البيت كعبة للعلماء وان ينظمهم التنظيم الدقيق .

وكانت بيت الحكمة التى عني بها الرشيد والمأمون مد يده وعينيه فكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الاوائل فانقض عليها انقضاضا يقرأ ويستوعب ويستسيغ ويتمثل تمثلا نادرا[٤٤] .

اما الاستفادة من مزج الثقافات المختلفة والمعارف المتباينة فقد كان من أهم أهداف بيت الحكمة وساعدها على ذلك دخول الموالى والبرامكة وغيرهم من الطوائف الاخرى فى احضان الدولة العباسية فقد كان يعمل فى بيت الحكمة علماء تنوعت ثقافتهم ومعارفهم فسهل بن هاورن صاحب خزانة بيت الحكمة كان يعمل حكيما شاعرا وجدير بالذكر انه فارسى شعوبى المذهب شديد التعصب على العرب يصف الجاحظ براعته وفصاحته . وله عدة كتب وزاداد عدد الكتب فى عهد الخليفة المأمون فلم تكن الكتب اليونانية هى التي حرص على نقلها الي بيت الحكمة بل نجد المأمون يطلب من يحبى بن البطريق احضار كتب لاتينية الى بغداد. وقد كان يحيى بن البطريق على علم بهذه اللغة . وبذلك ضم بيت الحكمة

كتبا فى مختلف اللغات ومختلف العلوم[٤٥]

وقد ساعد الموالى بدخولهم فى احضان الدولة العباسية على ان يكون هذا العصر هوالعصر الذهبى في تاريخ الترجمة والنقل عند العرب ، واستطاعوا لاتقانهم السريانية واليونانية ان ينقلوا الى اللسان العربى كل ما كان معروفا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والادبيات عند سائر الامم المتمدينة[٤٦]

واضاف البرامكة الى هذه الخزائن الكثير من الكتب وخصوصا الفارسية فى آخر عهد الرشيد ضمت خزائن بيت الحكمة كثيرا من الكتب بلغات متعددة منها العربية واليونانية والفارسية والسريانية وبعض اللغات الهندية[٤٨]

كما انفق المأمون اموالا طائلة فى جلب الكتب من الدولة البيزنطية فبيت الحكمة هو مجمع علمى ومرصد فلكى ومكتبة عامة أنفق فى انشائه مائتى الف دينار . فاقام فيه طائفة من المترجمين واجرى عليهم الارزاق من بيت المال .

ويدلنا على عظمة بيت الحكمة واهميتها ما يقوله ابن خلدون :

" ان الاسلام مدين الى هذا المعهد العلمى باليقظة الاسلامية الكبرى التى اهتزت لها ارجاؤه التى تشبه فى اسبابها . وهى انتشار التجارة والمادة كشف كنوز اليونان- وفى نتائجها- وهى ازدهار العلوم والفنون "[٤٨]

نقول انها تشبه فى اسبابها ونتائجها النهضة الاوربية فى العصور الوسطى اما عن الطرق والوسائل التى تم بها انشاء بيت الحكمة .

يعتبر عصر الخليفة المأمون عصر الازدهار الحضارى الذى ازدهرت ونشطت فيه حركة الترجمة نشاطا واسع النطاق ، فقد كانت بيت الحكمة من اهم مراكز الثقافة اليونانية ونشرها بين العرب الذين اقبلوا فى ذلك الحين اقبالا منقطع النظير وشجعهم على ذلك اقبال الخليفة نفسه على

الثقافة العقلية واعتزازه با لحرية الفكرية ، وتسامحه من الناحية الدينية تسامحا ادى الى تدعيم التيارات العقلية الجديدة التي اصطبغت با لثقافة اليونانية[٤٩] من هنا كان المأمون من اكبر انصار المعتزلة الذى يقوم قى اساسه على تمجيد العقل والاعتزاز بحريته . ولا يعنى ذلك انه كم تكن هناك بترجمات قبل عهد المأمون- فكما ذكرنا- بدلت قبل ذلك العهد جهودا ضخمه من قبل الخليفة المنصور ثم هارون الرشيد من بعده لنقل المادة العلمية اليونانية الى اللسان العربى. وقد كان للبرامكة وزراء الرشيد نصيب كبير فى هذه الجهود. فقد كانت عنايتهم بالثقافة اليونانية عناية كبيرة جعلتهم يعضدون العلماء ويشجعونهم على دراستها ونقلها[٥٠] كما جعلهم يرسلون الرسل لشراء مخطوطات اغريقية من الامبراطورية الرومانية[٥١]

وقد تركز الاهتمام على نقل المؤلفات الفلكية والرياضية والطبية ، كما نقلت بعض كتب ارسطو وغيرها . كما كانت بيت الحكمة تشتمل على الكتب الشرعية واللسانية وما ترجم عن اليونانية والفارسية والسنسكريتية والكلدانية والقبطية .

وقد اثبتت هذه الدار انها اهم مجمع أسس لنشر الثقافة بين جمهور المسلمين وكانت الترجمة من بين اعمالها الرئيسية[٥٢]

فقد انشأ المأمون ديوانا خاصا للترجمة على رأسه حنين بن اسحاق وامر بوضع خارطة للعالم سميت"الصورة المأمونية" وهى اول خريطة للعالم فى عهد العباسين ولذلك يلقب بعض المؤرخين المأمون باستاذ الحضارة العربية لاثره العلمى الكبير فى هذا المجال[٥٣] كما اسند الاشراف في بيت الحكمة لحنين بن اسحاق التى امدها المأمون بمختلف الكتب والمصنفات التى تحوى كل العلوم التى اشتغل بها العرب[٥٤]

وكان لهذه الدار الفضل الاكبر فى تهذيب الكتب المترجمة وتوحيد الاسماء

المعربة ثم رقة الا لفاظ لانغماس القوم فى الحضارة واخلادهم الى الترف وايثار الموالى للكلام السهل والاسلوب المبين ، لانهم حذقوا اللغة بالدراسة والصنعةلابالتلقين والطبع[٥٥]

وقد كان حنين بن اسحاق الذى جعله المأمون على رأس المترجمين (١٩٤هـ-٢٦٠هـ) كان شديد العناية بعلمه حتى قيل انه كان لا يعتمد على اقل من ثلاث نسخ ليستطيع مقارنتها والاطمئنان الى مصدر صحيح ينقل عنه[٥٦]

وتلقى بيت الحكمة جديد المصنفات العربية التى شارك فيها علماء المسلمين من الفرس والروم ومصر وغيرها من افكار الدولة فمن تعرب آبائهم واجدادهم بعد الفتح[٥٧]

كما ذكرنا من قبل انه من اشهر من تولوا منصب القيم على بيت الحكمة في عصر المامون " سهل بن هارون " الفارسى الاصل فكانت تحت اشراف مئات من المترجمين والخطاطين والنساخ واخرون من المجلدين والمذهبين .

ذكر ابن النديم فى كتابه الفهرست اسماء المشهورين الذين برعوا فى تذهيب المصاحف وصناعة تجليد الكتب في خزائن بيت الحكمة ، كما ذكر اسماء مشهورى المترجمين[٨٥]

وقد كان علماء العربية والاسلام خارج العراق يجعلون واجبهم الى بغداد واجبا علميا يحجون[٩٥] الى بيت الحكمة ويطلعون على مافيه من نفائس المخطوطات فى زمن لم تكن المطبعة فيه قد عرفت لتيسير الاعلام عن هذه النفائس والتعريف بها ونشرها والافادة منها واستمرت كذلك لمدى خمسة قرون تقريبا .

وهذا يدلنا ان هذه الدار من عدة وجوه اعظم المعاهد الثقافية التى انشئت فى ذلك الزمان

النظام الإدارى فى بيت الحكمة

وليس ادل على ذلك من عظمة تراثنا ان بيت الحكمة كانت فى ايام هارون

الرشيد تحوى مليون كتاب . اما المأمون فقد نقل الى بغداد مائة بعير من الكتب من اروبا حتى انه جعل ذلك فى عقد الصلح بينه وبين ملوك الروم

وقد جعل الخليفة هاورن الرشيد يوحنا بن ماسوية مشرفا عاما على ترجمة الكتب . جعل المامون سهل بن هاورن وهو برتبة وزير مشرف على بيت الحكمة كما كان لها من اهمية فى نظره ونظرالدولة التى يرأسها. وزادت محتويات هذه الدار بما قدم اليها من هديه من الحكام العرب او الاجانب تقربا الى الخلافة الاسلامية ، با لاضافة الى ماكانوا يبيعونه باسعار مرتفعة جدا .

فقد اهدى صاحب جزيرة قبرص مجموعة قيمة من الكتب الى بيت الحكمة وكذلك فعل قيصر القسطنطينية بعد ان طلبها المأمون ولعل اشهر المترجمين اوالمعربين انما ظهروا فى فترة حكم الرشيد والمامون امثال : ابو سهل الفضل بن نوبخت ، يوحنا بن ماسوية ، وابن البطريق وحنين بن اسحاق وعمربن الفرخان والكندى وثابت بن قرة وغيرهم كثير[٦٠]

وبيت الحكمة كانت مكتبة واسعة رتبت فيها الكتب ونضدت رفوف خاصة بحسب لغتها وفروع العلم الذى يتحدث فيه وزودت المقاعد للقراءة والمطالعة وجعل لها قيم لحفظها وترتيبها وتسليم كتبها الى القراء وما شاكل ذلك ، وكانت تضم فرقا خاصة للترجمة والنسخ[٦١]

ويقسم النشاط فى دار الكتب بين حجرات فبعضها للنسخ وبعضها الاخر للاطلاع والمراجعة وثالث للدرس والمناقشة وربما اشتملت هذه الدار على حجرات للموسيقى يختلف اليها الدارسون للترقية واستعادة النشاط كلما اعياهم الكد والسام[٦٢]

لم تخل مكتبة ذات شأن سواء كانت عامة او خاصة عن فهرس يرجع اليه استعمال مجموعة الكتب ، وكانت هذه الفهارس منظمة للغاية فهى تشمل الكتب

التى بالمكتبة مرتبه حسب موضوعاتها وبجانب هذه الفهارس العامة، كانت هناك ورقة خاصة ملتصقة بكل دولاب من دواليب الكتب وقد كتب على هذه الورقة عناوين الكتب التى يحويها ذلك الدولاب، وارقامها فيه بالاضافة الى عنوان الكتاب ورقمه . وكانت الفهارس تشمل ملاحظات عن الكتب التى نفذت او بعض اورقها ولم توجد جميع اجزائها

ويبدو لنا ان خزانة بيت الحكمة كانت مقسمة الى اقسام كبرى بحسب اللغات فهذا قسم الكتب الفارسية وهذا قسم الكتب اليونانية وهذا قسم الكتب السريانية... الخ وكل قسم تحت ورياسة شخص مشرف عليه ومسؤول عنه . والجميع يعودون في امورهم الى شخص اعلى .

ويقول المقدسى [٦٣] وهو يواصل وصفة لمكتبة عضد الدولة فى شيراز : لكل نوع من الكتب نوع من الكتب وفهارس فيها عناوين الكتب .

ويسجل ابو الحسن البيهقى انه رأى بنفسه فهارس كتب الصاحب بن عباد ، وان تلك الفهارس كانت تقع فى عشرمجلدات[٦٤]

وقد كانت الفهارس معروفة فى العراق منذ عهد خزانة الحكمة ، حدث الحسن بن سهل قال : قال لي المآمون يوما : أى كتب العجم اشرف ؟ فذكرت كثيرا منها ثم قلت : جاء يذان خرد (يتيمية السلطان) يا امير المؤمنين ، فدعا المامون بفهرست كتبه وجعل يقلبه فلم ير لهذا الكتب ذكرا . فقال كيف يسقط ذكر هذا الكتاب من الفهرست[٦٥]

وكانت تجارة الكتب تجارة رائجة ومنظمة ، لها اسواقها المعروفة ، وتعقد فى اسواقها مزادات لبيع الكتب وعرف بعضهم بسمسار الكتب وكان بعض هؤلاء علماء ومؤرخين قبل ابو المعالى سعد بن على بن القاسم الانصارى الخزرجى الوراق الحظيرى المعروف بدلال الكتب (سمسار الكتب)[٦٦] ولقد زخر العالم الاسلامى با لمكتبات وبهواة

الكتب ومجيها حتى اصبحنا نرى علماء وهواة بلغ عدد كتبهم ارقاما خيالية .

ومماساعد على هذا التطور اختراع الورق الذى يعد من النعم التى اسداها المسلمون الى الحضارة العالمية واستدعى هذا بالتالى ظهور الوراقين وفتحهم الدكاكين الكثيرة وازدهار تجارة الكتب ووجود طائفة هم "النساخون " الذين مهمتهم نسخ المخطوطات واعدادها للبيع [٦٧]

فلاعجب ان هم اعتنوا بها واحلوها اعلى منزلة عندهم .

تقول اولغا نبتوفى مجلة " الثقافة الاسلامية"[٦٨] "ان كل ماله علاقة بالكتب تطور بشكل ملحوظ فقد نسخت الكتب وزخرفت وجلدت بشكل انيق جدا وقد احيطت بها اعظم ضروب العناية والرعاية ونشرت بين الناس وان جميع ذلك كان هدف واهتمامات الثقافة الاسلامية " ولقد حوت اكاديمية بيت الحكمة فريقا من المجلدين همهم تجليد الكتب وحفظها حتى لا تتاثر بكثرة الاستعمال وقد حفظ لنا ابن النديم اسم احد مجلدى بيت الحكمة هذه فيذكر " ابن ابى الحريش وكان يجلد فى خزانة بيت الحكمة للمامون "[٦٩]

ويمكننا القول ان هذه المؤسسة المسماة " بيت الحكمة " قد اصبحت زمن المامون اكاديمية بالمعنى العلمى الدقيق للكلمة تحوى اماكن للدرس واماكن لخزن الكتب واماكن للنقل واماكن للتأليف الى جانب المرصد الفلكى والنشاط الفلكى الذى مارسته .

اما عن التغييرات التى طرأت داخل بيت الحكمة فى التصنيف والترجمة من الظواهر التى تستحق التسجيل فى هذا العصر هو العصر العباسى الاول عصر ظهور بيت الحكمة هو تدوين التراث العربى كله شعره ونثره . فكان هذا العمل الجليل من اهم منجزات بيت الحكمة فى تاريخ الفكر العربى [٧٠]

وفى الحق لا نريد ان نمر بهذه

الظاهرة مرورا عابرا فهى من أهم آثار بيت الحكمة التى نحن بصددها . انما ينبغي أن نقف عندها نسأل عن الدوافع التى أدت الى مثل هذا الحادث الفكرى ثم نتحدث عن تفاصيله مشيرين الى نتائجه .

فالطاقات الجديدة التى دحلت فى الاسلام واستعربت والملايين المنقطعة الى المعرفة لم يكن من المعقول ان تقنع با لتراث الذى يحتكر روايته شفاها جماعة من الحفاظ انما كانوا فى حاجة الى أن يجدوا بين أيديهم التراث كله مجموعا ليكون غذاء لروحهم وقودا لنهضتهم . كما أن النظرة العلمية الجادة التى جاءت نتيجة للاحتكاك با لفكر الهلينى بوجه خاص نتيجة لاسلام الموالى واستقرارهم .

ولم يكن من المعقول أن ننظر نظرة الاعتبار الى التراث المروى مشافهة لماكانت الحاجة ماسة الى متون بين يديها نقتلها درسا وبحثا .

وثمة اعتبار آخر ينبع من المفكرين العرب انفسهم الغيورين على تراثهم الفكرى فهو خوفهم الى ان تمتد الى هذا التراث غير المكتوب يد الوضع والانتحال والتزييف بسبب الاعتبارات التى استحدثت على الحياة العربية فى القرن الثانى الهجرى ، كالشعوبيين الذين كانوا ينالون من الثقافة العربية ويزدرون بكل ماهو عربى.

وكان العربى فى حاجة الى مواجهة هذه الحركة وبعث أمجاد العرب القديمة والتاريخ للماضى العربى.كما أن الفرق الدينية والتيارات السياسية المتضاربة كانت تمتد الى التراث العربى ليلتمس منه ما يؤيد وجهة نظرها وتكسب نشاطها طابعا مشروعا.

وهذا ما جعل جلة الخلفاء العباسيين يهتمون با لمؤسسات العلمية والثقافية كبيت الحكمة حيث عينوا له جلة العلماء للترجمة والتصنيف والنشر والتجليد والاشراف ورتبوا لهم المرتبات والأجور السخية لكى يخدموا النهضة العلمية ،

وليقوموا على وجه الخصوص باعمال الترجمة ، ومن هؤلاء يوحنا بن ماسوية وحنين بن اسحاق وجبريل بن بختيشوع وغيرهم .

وعلى الجملة فقد قامت بغداد وربيع الفكر فى إبانة الحياة العقلية مزدهرة تؤذن بثمار دانية القطوف. وتلاقت هذه المقومات الاجتماعية فى المجتمع البغدادى فطبعته بطابع متميز ، عرفه التاريخ بالمزاج البغدادى واشتهر بالظرف وتذوق الحياة والاستمتاع بألوانها وضروبها المختلفة ، وكانوا الي جانب استمتاعهم با لحياة وترفها يقبلون على العلم ويطلبون منه نصيبا حسنا حتى لقد قال فيهم احد المحدثين " ما رأيت فى طلب الحديث من اهل بغداد "[٧١]

وهكذا بقيت بغداد مهد الحضارة ومقر العلم والنور وعين العالم الاسلامى وقلبه .

مصادر و مراجع

القرآن الكريم

١. ابن القفطى : اخبار العلماء باخبار الحكماء (طبع لينوك ١٣٢٠ه) ص ٣٨٣ .

٢. اوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية ترجمة حسان ، دارالفكر العربى القاهرة ١٩٦٣ . ص٩٩ .

٣. د.عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) تراثنا بين ماض وحاضر . دارالمعارف بمصر ١٩٧٠م ص ٣٠

٤. ابن ابى اصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء . دارالفكر ، بيروت ١٩٥٦م . ج ٣٧٩٢

٥. ابن القفطى : اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ٣٨٣

٦. يا قوت الحموى : معجم الادباء ، تحقيق احمد فريد رفاعى ، القاهرة ١٩٣٦م ج٢ ص ٢٧٧

٧. زكريا هاشم زكريا : فضل الحضارة الاسلامية العربية على العالم ، مكتبة نهضة مصر . القاهرة ص٢٨٢

٨. عبدالله الدفاع : موجزفى التراث العربى

الاسلامى : مطبعة الرسالة بيروت ١٩٧٧م ص ٢٠٣

٩. احمد شلبى : تاريخ والتربية فى الا سلام ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ... ١٩٧٧م ص١٨٤

١٠. احمد امين : ضحى الاسلام . دارالمعارف بمصر ١٩٣٦م ج ٢ ص ٦٤

١١. ابراهيم انيس واخرون : المعجم الوسيد . القاهرة ج ١ ص ١٩٠

١٢. سورة الانعام ٦: ١١٤

١٣. سورة النساء ٤ : ٣٥

١٤.سورة لقمان ٣١ : ١٢

١٥. محمد فاروق النبهان : مبادى الثقافة الاسلامية . دار البحوث . الكويت ... ١٩٧٣ . ص ٦٩

١٦. المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والاثاربولاق القاهرة ١٢٧٠هـ ج ١ ص ٤٠٦

١٧. احمد امين : ضحى الاسلام ج٢ ص ٦٤

١٨. ابن ابى اصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ج ١ ص ١٨٦

١٩. ابن القفطى : اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ١٧٤

٢٠. محمد بن موسى الخوازمى : الجبر والمقابلة ، دار الكتابت المصرى ١٩٦٨م ، القاهرة ص ١٠

٢١. عبد الله الدفاع : موجز فى التراث العلمى العربى ص ١٩٠

٢٢. سيد اميرعلى : مختصر تاريخ العربى التمدن الاسلامى . طبع بمصر القاهرة .. ١٩٣٨م ص ٢١٧

٢٣. خدابخش (صلاح الدين) الحضارة العربية ترجمة على حسنى الحربوطى دارالحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٦٥م ص ١٦٠

٢٤. ابن النديم : الفهرست . بيروت لبنان ١٣٢٨ه ص ٣٨٢.

٢٥. المصدر نفسه ص ١٥٤

٢٦. ابن القفطى : اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ٣٠٩

٢٧. ابن ابى اصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ج٢ ص ١٢٤

٢٨. السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر) : تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بامر الامة . المطبعة الخيرية مصر ص ٢٧٥

٢٩. جلال مظهر : حضارة الاسلام واثرها فى الترقى العلمى . القاهرة ١٩٧٤م ص ٢٤٧

٣٠. عبد الله عبد الديم : التربية عبر التاريخ بيروت ١٩٧٥٢٧م ص ١٥٨

٣١. محمد عاطف البرقوقى وزميله : الخوارزمى العالم الفلكى الرياضى . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٤م ص ٧٨.

٣٢. ابن خلدون : المقدمة ص ٨٩٢ ،٨٩٣

٣٣. صاعد الاندلسى : طبقات الامم ط مصر ص ٤٧

٣٤. يوسف العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية . دار الكتابت دمشق ١٩٦٨م ص ٢٢٣

٣٥. ول ريورانت : قصة الحضارة العربية ترجمة محمد بدران طبع الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ج٢ص١٧٧، ١٧٨

٣٦. محمد غفرانى خراسانى : عبد الله بن المقفع . مكتبة نهضة مصر . القاهرة ١٩٧٠م ص ٣٦.

37.Dr :Aman Allah khan : al .Mamun , p.8,1962. La- and his Bayt al Hikmat hore , Pakistan

٣٨. محمد عبد الجواد الاصمعى : ابو الفرج الاصبهانى . درا العارف بمصر . القاهرة ١٩٤٣م ص٤٦

٣٩. نقولا زيادة : صور من التاريخ الاسلامى . دار المعلم للملايين . بيروت ، لبنان ص ٢٤١م ص ٤٦

٤٠. جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، مراجعة وتعليق حسين مؤنس طبق دار الهلال القاهرة ١٩٠٢م ج ٣ ص ٢٠٠

٤١. الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد او مدينة السلام . مطبعة السعادة بمصر . القاهرة ج ٢ ص ٤٢١.

٤٢. عصام الدين عبد الرؤف : الحواضر الاسلامية الكبرى . دارالفكر العربى القاهرة ١٩٧٦م ص٢١٧

٤٣. سيد امير على : روح الاسلام : ترجمة امين الشريف ، مكتبة الآداب القاهرة ١٩٦٣م ج ٢ ص ٢٥٦

٤٤. شوقى ضيف : العصر العباسى . دار المعارف بمصر ج ٢ ص ٢٩٨

٤٥. ابن القفطى : اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ٢٨٠.

٤٦. خليل طوطح : تاريخ التربية عند العرب . القدس ١٩٣٣م ص ١٥

٤٧. عصام الدين عبد الرؤف : الحواضر الاسلامية الكبرى ص ٢٤٦

٤٨. ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٦

٤٩. كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ،

بيروت ، لبنان ١٩٥٣م ج ٢ص٣٨

٥٠. د. عبد الكريم بليع : ادب المعتزلة فى القرن الرابع الهجرى مطبعة الرسالة القاهرة ١٩٦٥م ص٩٨.٩٩

٥١. اوليوى : مسالك الثقافة الاغريقية ص٢٨٨

٥٢. عبد الله بن العباس الجرارى : تقدم العرب فى العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربا. دارالفكر العربى . القاهرة ١٩٦٣م ص ٢٣٣

٥٣. احمد فريد رفاعى : عصر المأمون . دارالكتب المصرية . القاهرة ١٩٢٨م ص٣٧٥

٥٤. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والثقافى . مكتبة النهضة المصرية القاهرة ج٢ ص ٢٧٤

٥٥. د. احمد حسن الزيات : تاريخ الادب العربى للمدارس الثانوية ص ٢١٣

٥٦. د. بهى الدين زيان : الغزالى ولمحات فكرية عن حياته الاسلامية . دار نهضة مصر . القاهرة ١٤

٥٧. ابن القفطى : اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ٣٨٠

٥٨. ابن النديم : الفهرست ص٣٢

٥٩. د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطبى) تراثنا بين ماض وحاضر ص ٢١

٦٠. د. عبد المنعم ماجد : العصر العباسى الاول النهضة المصرية القاهرة ١٩٧٧م ص٣٥٠، ٣٥١

٦١. انور الرفاعى : الاسلام فى نظمه وحضارته . دار الفكر بيروت لبنان ١٩٧٣م ص ٥٤٤

٦٢. زكريا هاشم زكريا : فضل الحضارة الاسلامية العربية على العالم ص ٢٨٠

٦٣. المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص٤٤٩

٦٤. ياقوت الحموى : معجم الادباء ج٢ ص ٣١٥

٦٥. محمد كرد على : رسائل البلغاء . لجنة التاليف والترجمة . القاهرة ١٩٤٦٠م ص ٤٧٩. ٤٨٠

٦٦. طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم . تحقيق كامل بكرى وزميله دار الكتب الحديثه مصر ج ١ ص ٢٦٣

٦٧. د. محمد ماهر حمادة : الكتاب العربى مخطوطا ومطبوعا تاريخه وتطوره . دارالعلوم للطباعة والنشر ١٩٨٤م . السعودية الرياض ص ١٠١

٦٩. ابن النديم : الفهرست ص ١٤

٧٠. د. حسن احمد محمود وزميله : العالم الاسلامى فى العصر العباسى . دار الفكر العربى . القاهرة . ص ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣

٧١. الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ومدينة السلام ج ١ ص ٥٠.